الجمهورية صـ ١٠
* العدد ١٣٢٥٤ * السبت ٢٨ ذو الحجة ١٤٢٦هـ * الموافق ٢٨ / ١ / ٢٠٠٦م

منهج «الهمداني» في كتابة التاريخ اليمني

■ د/ علوي عبدالله طاهر

■ **مدخل:**

كان العرب قبل الإسلام يورخوت بالاحداث العظيمة والوقائع المشهورة كعام الفيل وغيره، وكانوا يحددون الاوقات بالنجوم والاهلة، واستمروا على هذه الحالة حتى عهد عمربن الخطاب، حين أمر باتخاذ الهجرة النبوية بداية للتاريخ الإسلامي.

وكان العرب يتذاكرون أيامهم عن طريق الرواية الشفهية ينفتحو،م بأمجادهم وامجاد آبائهم واجدادهم، وماحققوه من انتصارات في حروبهم القبلية أو حروبهم ضد اعدائهم، واتخذوا الشعر والنثر وسيلة لذلك.

وكان الحديث عن الغزوات والمعارك القبلية التي سموها «الأيام» حديثاً شيقاً في مجالس السمر القبلية، وصار الحديث عن «ايام العرب» جزءاً من الأخبار التاريخية، وموضع اهتمام المؤرخين ودارسي اللغة والادب.

وبمجيئ الاسلام صارت الحاجة ماسة لتدوين الوقائع التاريخية، بسبب زيادة اهتمام الناس والحكام بمعرفة اخبار المعارك الحربية التي كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يخوضها ضد اعدائه، فظهر مايعرف بأخبار السير والمغازي، التي تعني بأخبار فتوحات الإسلام ومغازي الرسول وغزوات اصحابه.

ولما كان القرآن الكريم قد اشار في بعض آياته إلى الأمم الغابرة فإن ذلك قد حفز المسلمين لمعرفة المزيد عن اخبار تلك الأمم، فاهتموا بأخبار اليهود والنصارى وغيرهما ممن ورد ذكرهم في القرآن وأدى ذلك إلى انتشار الروايات الشعبية بما فيها من قصص شعبي واساطر خرافية واسرئيليات.

كان قد جمعها وهب بن المنبه في كتابه التيجان في ملوك حمير.

وعند تشكيل الدولة الاسلامية رغب الخلفاء في الإطلاع على سياسة الملوك المعاصرين لهم، أو الذين سبقوهم لمعرفة طريقتهم في الحكم، وأسلوبهم في سياسة شعوبهم، فحفز ذلك بعض الناس للاهتمام بتتبع سير الملوك واخبارهم والحروب والمكائد التي دبرت لهم، فظهرت بعض الكتب التي تعني بهذا الجانب مثل كتاب «تاريخ الأمم والملوك» للطبرى.

وباتساع رقعة الدولة الإسلامية، ورغبة الولاة والحكام في معرفة ذلك لتقدير الخراج أو الجزية ظهر الاهتمام بمعرفة أخبار البلاد المفتوحة مما شجع الاخباريون والمؤرخون تخصيص بعض فصول كتبهم للحديث عن تلك البلدان، ثم ظهرت كتب متخصصة لذلك، مثل كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري.

ولما كان المجتمع الإسلامي يقوم تركيبه على اساس طبقي إما من حيث الأنساب، أو من حيث الاسبقية في الاسلام، فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى الاهتمام بدارسة طبقات المجتمع، فظهر من جراء ذلك كتب الطبقات مثل:.

- كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد.
- كتاب الطبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي.
- كتاب لواقع الأنوار في طبقات السادة الاخيار للشعراني.
- كتاب طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي.

وغيرها من الكتب.

وباحتكاك العرب بشعوب جديدة لها تاريخها، كان لابد أن يبحثوا عن تاريخهم ليظهروا للشعوب الأخرى أن للعرب تاريخاً، وأنهم قادرون على مسايرة بقية الشعوب وبناء حضارة فاظهروا اهتماماً بتاريخ العرب وقبائلهم واخبارهم وكل مايتصل بأمجادهم.

اختلاف مناهج المؤرخين في تدوين التاريخ:

لقد نهج المؤرخون العرب في بداية عهدهم بتدوين التاريخ منهج الإخباريين في ترديدهم لأنواع من القصص الشعبية المتداولة التي تؤرخ لأحداث وحروب دون ربط تاريخي أو توقيت زمني، ولما شرعوا بكتابة السير والمغازي، وخاصة كتابة السيرة النبوية بدأوا يدققون في الاحداث وتواريخها، مع بقاء اللون القصصي سائداً في كتاباتهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة البطل في قصص ماقبل الإسلام.

واشهر كتب السيرة النبوية كتاب محمد بن اسحاق المتوفي ١٥٠هـ المعروف بسيرة ابن اسحاق، وقد اختصره عبدالملك ابن هشام في الكتاب المعروف بسيرة ابن هشام.

ومن كتب المغازي كتاب مغازي الواقدي وطبقات ابن سعد، وغيرها.

وعند استقرار الدولة الإسلامية ونشؤ دواوين الخلفاء والأمراء والحكام انتفع المؤرخون مما في هذه الدواوين من مراسلات ومعاهدات.. الخ، كما انتفعوا من قربهم من رجال الدولة والحكم وقادة الجيش الذين زودوهم بمعلومات عن المعارك التي خاضوها، بالإضافة إلى مالاحظوه بأنفسهم أو اطلعوا

عليه من أخبار القضاة ورجال الدولة وقادتها، فتوفر لديهم مادة هامة ساعدتهم في الكتابة التاريخية.

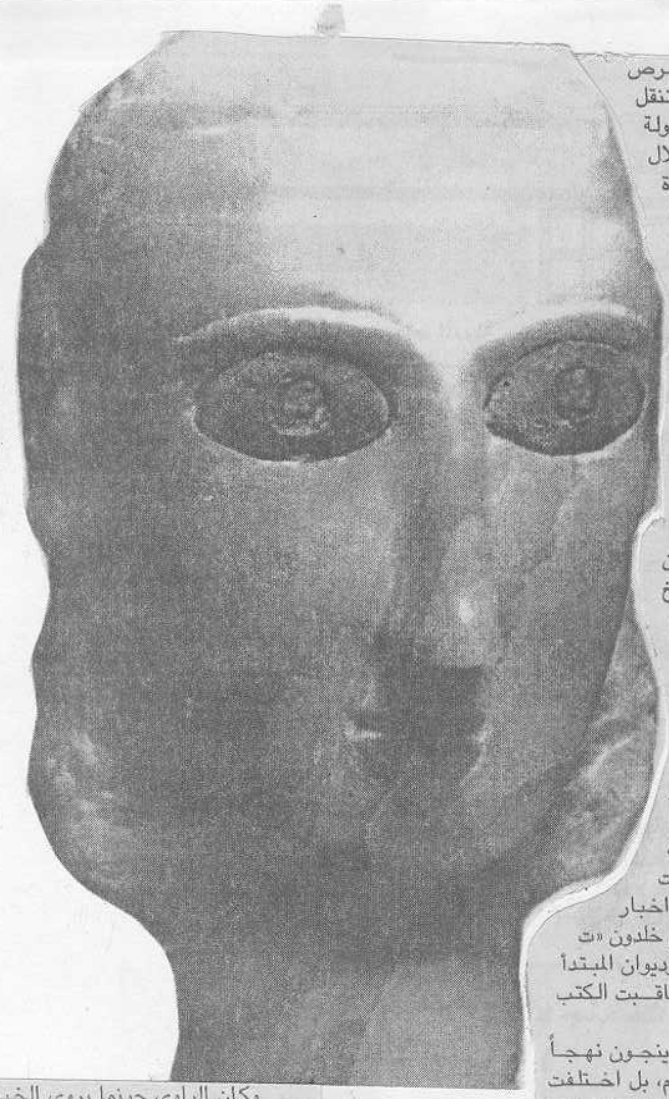

وقد أتيحت الفرص لبعض المؤرخين في التنقل بين بعض أنحاء الدولة الاسلامية، وتمكنوا خلال رحلاتهم من مشاهدة بعض معالم البلدان التي شاهدوها والاستفادة من مؤرخي وعلماء تلك البلدان، فاحتك المؤرخون والعلماء بعضهم ببعض، وتنافسوا في كتابة تاريخ الاقاليم التي عرضوا فيها أخبار الولاة والحكام أو القضاة في اقاليمهم، فانتفع المؤرخون من ذلك في تدوين تاريخ الأمة الاسلامية بشكل عام.

فالف المسعودي «ت ٣٤٦هـ» مروج الذهب، والف ابن مسكويه «ت ٤٢١هـ» تجارب الأمم، والف ابن الاثير «ت ٦٣٠هـ» الكامل في التاريخ، والف ابن الفداء «ت ٧٧٢هـ» المختصر في اخبار البشر، كما ألف ابن خلدون «ت ٨٠٨هـ» كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وهكذا تعاقبت الكتب التاريخية.

ولم يكن المؤرخون ينجون نهجاً واحداً في مؤلفاتهم، بل اختلفت مناهج بحوثهم التاريخية، باختلاف ظروف وثقافة كل منهم، كما اختلفت أيضاً باختلاف عصورهم التاريخية وبيئاتهم.

وكان اهتمام المؤرخون العرب ينصب على جانبين اثنين هما :

- أخبار الأيام والمنافرات
- ذكر الأنساب والمفاخر والمآثر والمثالب.

وكانوا يصوغون اخبار هذه الموضوعات في نسق قصصي مشوق يتذاكرونه في الأسمار والأسفار، وربما نظموه شعراً ليسهل عليهم حفظه وتذاكره واستذكاره.

وكان للقصاص والوعاظ أثر في ايجاد التحسس التاريخي عند العامة والتنبه إلى أهمية الأخبار والقصص مما أوجد الرغبة في حفظها وتدوينها.

لقد كان القصاصون يستعينون بالحكايات والأخبار والقصص التاريخي في ابلاغ مايريدون من المواعظ أو كسب جمهور العامة وأقناعهم بالقضية التي يدعون لها.

وقد حاولت بعض الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرها استغلال وضع القصاصين، فقامت بنشر بعض القصص المؤيدة لمذهبهم، بل ربما اشتغل بعض دعاتها بالقصص لبلوغ مايريدون.

وهناك دوافع أخرى للتدوين التاريخي كالرغبة في تدوين تاريخ خليفة معين أو طائفة أو قبيلة أو بلد.

وقد مرت عملية التدوين التاريخي بعدة مراحل حتى اكتملت مناهجه حيث بدأت عملية التدوين التاريخي بمرحلة التدوين الشخصي، كان الاخباري أو المؤرخ يدون مايسمعه من افواه الرواة الذين شاهدوا الحدث أو سمعوه ممن شاهدوه، أو مايشاهده هو من أحداث معاصرة له ووضعوا ذلك في جزازات غير مرتبة ولامبوبة، فقد تجد في الصحيفة أو الجزازة الواحدة الخبر عن السيرة النبوية إلى جوار القصيدة الشعرية، وقائمة النسب، وغيرها فالهدف هو جمع المادة العلمية وتسجيلها لاتنسيقها وتبويبها.

وكان الراوي حينما يروي الخبر أو الحكاية انما يرويها من ذاكرته رغم ان الاصل مدون عنده.

أما المرحلة الثانية للتدوين التاريخي فهي مرحلة تدوين الموضوعات المفردة المستقلة وظهور الرسائل التاريخية الصغيرة، فقد بدأ الاخباريون في هذه المرحلة بفصل المواد العلمية عن بعضها البعض، وبدأو بتخصيص كل موضوع بكتاب يحمل عنواناً خاصاً، وقد لايتجاوز بعض هذه الكتب بضع صفحات.

أما المرحلة الثالثة من مراحل التدوين التاريخي، هي مرحلة ظهور المؤلفات التاريخية الشاملة على أساس الترتيب الزمني المتسلسل، فيبدأ مثلاً ببداية الخليقة ثم بذكر الاجيال و الأمم بعد ذلك حتى يأتي إلى البعثة النبوية، ثم يذكر الأحداث بعدها مسلسلة سنة بعد سنة على أساس الجوليات.

وهناك نوع من التدوين التاريخي اتخذ الترتيب على اساس الطبقات، ثم نحا التدوين التاريخي في عصرنا منحىً اكاديمياً علمياً ومنهجياً.

منهج الهمداني في تدوين التاريخ اليمني وتوثيقه:

عند الحديث عن تدوين التاريخ اليمني وتوثيقه لايمكن اغفال اسهامات الحسن بن أحمد الهمداني «ت ٣٣٤هـ» في هذه العملية، وتفرده فيها.

فالحسن بن أحمد الهمداني من مؤرخي وعلماء القرن الرابع الهجري، ذلك العصر الذي عرف بالتشتت السياسي والصراع المذهبي، غير ان الهمداني كان قد استطاع ان يلم بمختلف علوم عصره، وتفرد على بعض علماء زمانه، فأتى بنظريات علمية ماكان يمكن لغيره الجهر بها في عصره.

لقد جهر بكروية الأرض وأنكر أنها مسطحة وهو القول الشائع حينذاك ،وأقام البرهان على ذلك بالأقيسة والأدلة العقلية وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه «صفة جزيرة العرب».

وهو من أوائل العلماء الذين كشفوا النقاب عن تاريخ اليمن القديم ،وأول من أزاح الستار عن القلم الحميري والمساند الدهرية وألقى عليها أضواء كاشفة خلدها بالقيد والتسجيل في حينه.

وللهمداني منهج فريد في البحث التاريخي وتدوين وقائعه ويتضح ذلك بوضوح في كتابيه «الاكليل» و«صفة جزيرة العرب».

ففي «الاكليل» كشف الستار عن دول اليمن القديمة وماكانت تتمتع به من شورى وديمقراطية ،معتمداً على النقوش التاريخية القديمة ،واستنطاقه للاثار والمامه بالتاريخ ،وفهمه للقرآن الكريم.

فهو أول من أبرز حضارة اليمن بوجهه المشرق الوضاء فأشار إلى محافد اليمن وقصوره وسدوده وهياكله وآثاره فوصفها وصفاً شيقاً كما هي في حقيقتها على قدم عهدها.

وفي «صفة جزيرة العرب» تحدث عن جزيرة العرب من حيث حدودها ومعالمها ومعارفها وطرقها وأوديتها ومناهلها وجبالها ومدنها ومخاليفها.. إلخ.

كما تحدث عن جغرافية الأرض وطبائع البلدان وسكانها من عرب وغير عرب ،على اختلاف أصنافهم وأجناسهم ،وذكر القارات وسماها الاقاليم ،وذكر اسيا وأوروبا وغيرها مما يدل على سعة معارفه.

وتميز منهج الهمداني في التدوين التاريخي بعدد من الخصائص منها ،عدم التكلف في الاسلوب ،وهو ماكان سائداً في عصره ،كما يتميز بواقعيته ودقة أوصافه وتمحيصه للخبر فهو لايأخذ الخبر كما هو ،وإنما يخضعه للعقل والمنطق ،ويمحصه ،ويشك فيما لايراه مطابقاً للعقل والواقع ،وكان يلجأ إلى تدعيم معلوماته بشواهد كثيرة في كثير من الحالات ،ومعظم شواهده من القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة وأشعار العرب وأمثالهم.

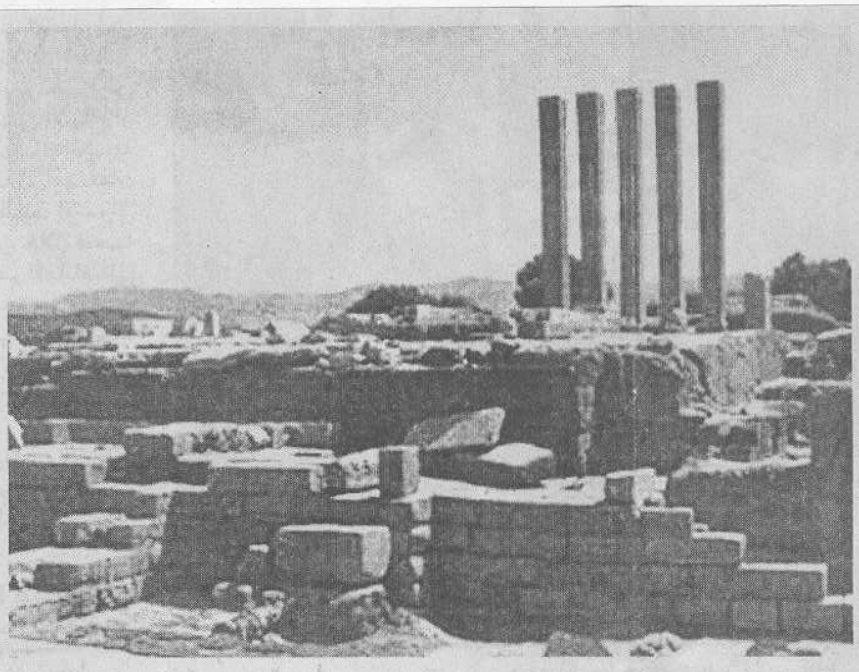

كما كان الهمداني ملماً باللغة الحميرية وخط المسند مما ساعده على عقد مقارنة بين قواعد الكتابة العربية وخط المسند.

واعتمد الهمداني في كثير من الحالات على الاسلوب القصصي في السرد التاريخي ،ومعظم قصصه تاريخية اسطورية ،وكان يأتي بها لتوضيح مقولاته حول أثر معين أوقبر محدد ،أوغير ذلك.. وكان يعتمد على الاسناد في ذكره للقصة.

• منهج عمارة في تدوين التاريخ اليمني وتوثيقه:

كان عمارة «ت٥٤٩هـ» قد حضر إلى مجلس القاضي الفاضل صاحب ديوان الانشاء في عهد الخلافة العاضدية وذلك سنة ٥٦٣هـ ،وكانت الصلة بين الرجلين قوية ،فطلب القاضي الفاضل إلى عمارة اليمني أن يضع كتاباً عن اليمن يجمع فيه ماعلق بحفظه من أخبار بلاد اليمن ،سهلها ووعرها ،برأ وبحراً ،وعدد ممالكها ،وأبعاد مسالكها ،وحروب أهلها ،ووقائعهم ،ومآثرهم ،وصنائعهم ،وأخبار قضاتها ودعاتها ،وأخبار أعيانها وأمرائها..إلخ.

فصادفت هذه الرغبة هوى في نفسه ،فامتثل لأمر القاضي الفاضل وشرع في تأليف كتاب«المفيد في أخبار زبيد» والشهير بتاريخ اليمن ،لأن موضوعاته ليس خاصة بزبيد وحدها ولكنها تشمل اليمن كله.

وقد استهل الكتاب بالحديث عن تأسيس مدينة زبيد سنة٢٠٤هـ وظهور الدولة الزيادية في اليمن ،ثم ذكر أخبار علي بن محمد الصليحي وماحصل في الدولة الصليحية من حوادث ،ومافيها من قضاة ودعاة وكبراء وشعراء.. ثم انتقل للحديث عن أخبار الزريقيين في عدن ،ثم أخبار دولة بني نجاح ،وينهي الكتاب بفصل عمن ولي الدولة الفاطمية باليمن ،فعدد بعض أسماء الدعاة وبين من منهم جمع بين الدعوة والملك ومن اقتصر على الدعوة فقط.

ويمتاز هذا الفصل موجهة من الخليفة الآمر الفاطمي إلى الملكة السيدة الحرة بشأن ولادة ابنه أبي القاسم وطلب إليها اذاعة هذا الخبر السار بين رعاياه اليمن.

وقد كتب عمارة موضوعاته باسلوب سهل وشيق خال من المحسنات البديعية الشائعة في نثره الفني.

وكانت شخصية المؤلف تظهر في المواقف التي يؤرخ فيها للاحداث التي عاصرها ،ووقعت تحت بصره ،فكان يصف ما رأى ،ثم يناقش نتائج الحدث ،ويربطها باسبابها ومقدماتها.

كما كان يتحرى الدقة فيما يكتب فلا يلقي الكلام على عواهنه ولايتساهل في مسألة ولو كانت بسيطة وإذا جهل أمراً صرح، وكانت شخصيته تحتجب أحياناً حينما يعتمد على النقل والرواية لتصوير الاحداث التي سبقت عصره ،ففي هذه الحالة يعني كثيراً بالاسناد والتقصي ،فيروي عمن يتوسط الضبط في أخبارهم ،وينقل عما صح عنده من الكتب.

ويعتبر كتابه هذا سجلاً عاماً لتراجم كبار أهل اليمن في عصره من دعاة وقضاة ووزراء وأدباء وفقهاء.. إلخ.

كما عنى بالناحية الجغرافية لبعض جهات اليمن فقد توسع في وصف السهول والجبال والحصون والطرقات ،ويقاس أبعادها ،وأحوال الجو والزراعة وأنواع المحاصيل.. إلى غير ذلك معتمداً على ملاحظاته الشخصية وأسفاره العديدة بين الأقاليم المختلفة ،كما ذكر مارأى من المساجد والعيون والآثار القديمة.

وقد اكتسب كتابه«تاريخ اليمن» لعمارة اليمني قيمة تاريخية باعتباره من المراجع الأولى في تاريخ اليمن الاسلامي حيث أن احداثه التاريخية تنتظم لنحو ثلاثة قرون وبالذات في الفترة التي تقلص فيها نفوذ حكم العباسيين وبدأت بعض الأقاليم تستقل عن المركز ومنها اليمن.